جامعة تكريت
كلية التربية للعلوم الانسانية
قسم اللغة العربية

المرحلة الثالثة
المادة: نقد قديم   عنوان المحاضرة: الافكار في
النقد القديم   اسم التدريسية: راوية عبدالله محمد

المحاضرة الثامنة

إلى الصنعة ومعرفتها طريقاً سابلة ،فأكثرا منه تكثيراً في أشعارهما سهلها عند الناس ، وأقل تكلفاً ، وهو أول من تكلف البديع من المولدين ، وأخذ نفسه بالصنعة ، فأكثر منها.[1]

والحق أن مسلما ، يعتبر أول من فتق مذهب البديع ، وتناوله منه أبو تمام فبلغ به الغاية ، فكلاهما يعد زعيم الصنعة في العصر العباسي ، لكنهما يتفاوتان.

ويخلص ابن رشيق إلى أن المصنوع أفضل من المطبوع من الناحية الفنية ، شريطة أن تظل الصنعة في النص الشعري طفية نادرة الأمثلة غير متكلفة ، بل إننا نجد أن ابن رشيق يذهب إلى تفضيل البيت الذي أحكمت فيه الصنعة على البيت الجيد المطبوع ، يقول :" ولسنا ندفع أن البيت إذا وقع مطبوعاً في غاية الجودة ، ثم وقع في معناه بيت مصنوع في ⌀اية الحسن ، لم تؤثر فيه الكلفة ، ولا ظهر عليه التعمل ،كان المصنوع أفضلهما"[2]ويرى الأستاذ احمد يزن أن ابن رشيق عزز رأيه بإبداع شعري ظهرت فيه الصنعة البيانية جلية ، وخاصة التشبيه والبديع والجناس[3] ويبرز ابن رشيق الهدف من اللجوء إلى الصنعة أثناء حديثه عن الوجوه البلاغية وخاصة تشبيه والاستعارة، ويرى أن هذه الوجوه البلاغية تستخدم لتأدية المعنى الذي لا يستطيع الكلام العادي تأديته ؛ فالتشبيه والاستعارة مثلا من وجوه الصنعة وهما يخرجان الأغمض إلى الأوضح ويقربان البعيد (...)[4]

فوظيفة التشبيه والاستعارة إذن قصد ابن رشيق هي الإبانة والتوضيح لتسهيل عملية التلقي بين الباحث والمتلقي ، ويضيف ابن رشيق انه متى توفرت هذه الخصائص في التشبيه كان حسناً وأستطاع تأدية وظيفته التواصل بين المبدع والمتلقي ، أما إذا انعدمت هذه الخصائص في التشبيه كان قبيحاً ، لذا جعله ابن رشيق ضربين:" تشبيه حسن ، تشبيه قبيح ؛ فالتشبيه الحسن هو الذي يخرج الاغمض إلى الأوضح فيفيد بيانا ، والتشبيه القبيح ما كان على خلاف ذلك "[5].

إن شعرية النص عند ابن رشيق تكمل في الجمع بين المطبوع والمصنوع ، لهذا طلب إلى الشاعر استخدام الصنعة الخفيفة اللطيفة ، وأن يبتعد عن التكلف والتعمل كي لا ينقلب الخطاب الشعري إلى تكلف ظاهر تقبل عاري من بعض الوجوه البلاغية التي يتميز ⌀ا الكلام الأدبي من سواه ؛ لان البلاغة "قليل يفهم كثيراً لا يسأم[6]

من هنا دعا ابن رشيق إلى ضرورة الابتعاد عن الإفراط في استعمال المحسنات البديعية والزخرف اللفظي والالتزام بالصنعة الخفيفة اللطيفة.

ومهما يكن من أمر ، فقد وقف ابن رشيق عن قضية الطبع والصنعة ، موقفاً وسطاً؛ فلم يقدم الطبع على الصنعة ولا الصنعة على الطبع ، وإنما رأى أن العملية الإبداعية في الشعر إنما تنطلق من الطبع والموهبة ، ثم تنقح وتهذب عن طريق الصنعة الخفيفة التي تحافظ على رونق الشعر وقوة الطبع .

أما محمد بن شرف القيرواني لم يفرد لقضية الطبع والصنعة باباً خاصاً في رسالته (مسائل الإنتقاد) ، وإنما نعرض لها –بإيجاز – عند حديثه عن الشعراء الذين تناولهم بالدراسة والنقد[1] فقال :" فشعر الشيخ أبو عقبل[2] ينطق بلسان الجزالة ، عن جنان الأصالة ، فلا نسمع له الاكلاما فصيحاً ، ومعنى متيناً صحيحاً[3].

أما العباس بن الأحنف[4] ،فقد رقق الشفق كلامه ، ونققت قوة الطبع نظامه ، فله رقة العشاق ، وجودة الحذاق"[5].

يتضح مما تقدم أن ابن شرف قسم الشعراء إلى قسمين : قسم خاص بالشعراء المطبوعين ، والثاني خاص بشعراء الصنعة، ويبدو ان ابن شرف كان معجباً بالشعراء المطبوعين ؛ لأن شعرهم ينساب كالماء الزلال، لرقة ألفاظه وفصاحة كلامه ، وقد خالف ابن شرف ابن رشيق في حكمه على شعر البحتري ؛ ذلك أن بن رشيق جعل البحتري من شعراء الصنعة الخفيفة ، بينما جعله ابن رشيق من الشعراء المطبوعين ورأى أن لفظه ماء ثجاج ، ودجراج ومعناه سراج وهاج على أهدى منهاج ، يسبقه شعره إلى ما يجيش به صدره، يسر مراد ولين قياد ، إن شربته أرواك ، وأن قدحته أوراك ، طبع لا تكلف يعيبه ولاعناد ينيبه ، لا يمل كثيره ، ولا يستنكف غزيره، لم يهف أيام الحلم ، ولم يصف زمن الهرم."[6]

وعلى الرغم من انتصاره للشعراء المطبوعين ولعه بشعرهم ، لم يخف ابن شرف إعجابه بطريقة الشعراء أصحاب الصنعة ؛ فهو حين تحدث عن مسلم بن الوليد الذي رأى أن كلامه "مرصع ونظامه مصنع ، وغزله مستعذب ومستغرب ، وجملة شعره صحيحة الأصول، مصنعة الفصول قليلة الفضول".[1]

وأما أبو تمام "فمتكلف إلا أنه يصيب ، ومتعب لكن له من الراحة نصيب ،وشغله المطابقة والتجنيس(..) جزل المعاني ، مرصوص المباني"[2]وهكذا أوزان ابن شرف بين الشعراء المطبوعين ، وبين الشعراء أصحاب الصنعة ، فالمطبوع عمل يقوم على العفوية والتلقائية ، ويقوم على فصاحة الكلام وجزالته، وبسط المعاني وإبرازه وإتقان جودة الشعر ، ليما يؤدي وظيفته المتمثلة في التوضيح والإبانة، لتسهيل عملية التلقي ، واما المصنوع ؛ فيتمثل في الإكثار من المحسنات البديعية، وهو ضرب يمثله مسلم ابن الوليد ، وابو تمم وعلى الرغم من ان شرف حاول أن يوفق بين المطبوع والمصنوع، إلا أنه مع ذلك لم يخفي إنتصاره للمطبوع ،وإعجابه بشعرائه ، وخاصة البحتري الذي Øج طرقة الأوائل ، وحافظ على عمود الشعر ، ويظهر هذا جلياً في نقده لافتتاحيات شعر أبي تمام ، ويقول:"ومما يعاب من شعر الافتتاحيات الثقيلة ، مثل قول حبيب [يعني أبي تمام] أول قصيدة :

هن عوادي يوسف وصواحبه *** فعزما فقدما أدرك السؤال طالبه.

يشر ابن شرف إلى ان أبي تمام ولع بالصنعة ؛ فوقع في مثل هذه الإبتداءات لكن ابن شرف لم يوضح رأيه الصريح في قضية الطبع والصنعة ؛ فقد حاول التوفيق بين المطبوع والمصنوع.كنا نود لو أفرد باباً خاصاً لهذه القضية الهامة التي شغلت كثيراً من النقاد في المشرق والمغرب على حد سواء .

أما حازم القرطجني ، فقد درس قضية الطبع والصنعة ، فتحدث عن النظم ، ورأى أنه يرتبط بعملية الإبداع الشعري ، يقول "النظم صناعة آلتها الطبع ، والطبع هو إستكمال للنفس في فهم أسرار الكلام ، والبصيرة بالمذاهب والأغراض التي من شأن الكلام بحسبه عملاً كان النفوذ في مقاصد النظم وأغراضه وحسن التصرف في مذاهبه وأنحائه إنما يكون بقوة فكرية واهتداءات خاطرية تتفاوت فيها أفكار الشعراء"[3] فالنظم عند حازم- آلته الطبع؛ وهو يشمل العمل الادبي لكل منذ بدء تصور المبدع له ، وإستحضار معانيه ، وإنتقاء عبارته ، **وصف** ألفاظه إلى إختيار ألفاظه وقوافيه.

إلا أن الذي ميز حازم من النقاد السابقين هو أنه درس الطبع والصنعة بوصفهما عنصرين متلازمين في مقومات الإبداع الشعري سواء أكانت بيئية خارجية أو نفسية داخلية، منطلق في ذلك بما قرأه وتمثله من موروث النقاد القدامى، او موروث الفلاسفة المسلمين شراح كتاب أرسطو أمثال ابن سينا والفرابي[1] وتنقسم المقومات الخارجية عند حازم مهيئات وأدوات وبواعث . فأما المهيئات فتحصل في وجهين يمثل فيهما الطبع والصنعة، يخص الوجه الأول الطبع ، وهو" النشئ في بقعة معتدلة الهواء ، حسنة الوضع طيبة المطاعم، أنيقة المناظر، ممتعة مما كل ما للأغراض الإنسانية به علقه"[2].ويخص الوجه الثاني : الصنعة ، وهو "الترعرع بين الفصحاء الألسنة المستعملين للأناشيد المقيمين للأوزان"[3] لأنه حسب حازم "موجه أباه لحفظ الكلام الفصيح ، وتحصيل المواد اللفظية والمعرفة بإقامة الوزن، وأما الادوات ؛ فتنقسم إلى "العلوم المتعلقة بالألفاظ والعلوم المتعلقة بالمعاني"[4]؛ وأما البواعث فتنقسم إلى "أطراب وإلى آمال، فكان كثيراص من الأطراب إنما يعتري أهل الرحل بالحنين إلى ما عهدوه ومن فارقوه، والآمال إنما تعلق بخدام الدول النافعة ألا تكمل تلك المهيئات للشاعر إلا بطيب البقعة وفصاحة الامة ، وكرم الدول ومعاهدات التنقل والرحلة.[5] ثم ينتقل حازم إلى معالجة الأسس النفسية للإبداع ، فيذكر أن الإبداع يقوم على ثلاثة قوى أساسية ؛ لأن الشاعر الجيد – في نظر حازم – هو الذي يتمتع بقوة نفسية خاصة لايتمتع Ø غيره من الناس.[6]

والذي لا شك فيه أن حديث حازم عن قوى الإبداع : يعد إضافة من الإضافات الهامة التي تميز Ø تفكيره النقدي ، لأن سراح موروث أرسطو ، وخاصة ابن سينا الذي أخذ عنه حازم معظم آراءه ، لم يتعرض لهذه القضية في معرض حديثه عن الشعر بشكل عام.

ويرى حازم أن هذه القوى هي التي تقوم بعملية التخييل الشعري ، وهي : القوة الحافظة والقوة المائزة ، والقوة الصانعة .

أما القوة الحافظة ، فهي تقابل الطبع ،كما يظهر من توضيح حازم لطبيعتها ، وبعبارة أخرى هي تلك القوة التي تكون Ø :"خيالات الفكر منتظمة ، ممتازا بعضها عن بعض ، محفوظ كلها في نصابه فإذا أراد مثلاً أن يقول

غرضا ما في نسيب أو مديح أو غير ذلك ، وجد خياله اللائق به قد أهبته له القوة الحافظة بكون صور الأشياء مترتبة فيها على حد ما وقعت عليه في الوجود ، فإذا أجال خاطره في تصورها فكأنه اجتلى حقائقها.[1]

أما القوة المائزة ، فهي القوة التي يتميز ﻬا الإنسان ما يلائم الموضع والنظم والأسلوب والغرض مما لا يلائم ذلك، وما يصح مما لا يصح ، وتتولى القوة الصانعة العمل "في ضم بعض أجزاء الألفاظ والمعا ، والتركيبات النظمية والمذاهب الأسلوبية إلى بعض والتدرج من بعضها إلى بعض ؛ وبالجملة التي تتولى جميع ما تلتئم به كليات هذه الصناعة[2] هذه هي القوى التي يدعو حازم إلى ضرورة توافرها في الشاعر ؛ لاﻬا هي أساس موهبته الشعرية وطبعه، ولكن الموهبة لا تكفي لصنع الشاعر الفحل ، إذ لابد من الدربة والثقافة والمران ، لذلك نراه يرفض الشاعر الذي يعتمد على الطبع وحده ؛ لان " الطبع قد تداخلها من الإختلال والفساد أضعاف ما تداخل الألسنة من اللحن ؛ فهي تستجيد الغث وتستغث الجيد من الكلام مالم تقنع بردها إلى اعتبار الكلام بالقوانين البلاغية ، فيعلم بذلك ما يحسن وما لايحسن"[3].

ويضيف حازم أن العرب مع كوﻬا أجود طبعاً وأسمى شعراً لم تكن تستغني عن الثقافة والمران، بل شعرؤها يتصلون بمن أجود منهم في صناعة الشعر ويرون عنهم ، ويقرؤون على أيديهم .

وهكذا درس حازم القرطجني قضية الطبع والصنعة ، واعتبرها صنوين متلازمين في العملية الإبداعية ، فإذا كانت الموهبة أمراً نفسياً ، فإن إدراك الصنعة ومعرفة أسرارها من الأمور الفنية الأساسية في عملية الإبداع الشعري حرصاً على . جماله الفني وطاقاته الكامنة وقيمه الخامدة .

– ولم يفرد محمد القاسم السجلماسي باباً مستقلاً لقضية الطبع والصنعة في كتابه (المنزع البديع في تجنيس أساليب البديع) ، وإنما تحدث عنها في معرض حديثه عن البلاغة وأجناسها ، يقول في مقدمة كتابه:"الحمد لله الممتن علينا بشرف النطق ، المسجل لنا من حسن بيانه بإحراز فضل السبق الناهج ﻬذه الصنعة البلاغية والملكة البيانية إلى الوقوف على لطائف معا تنزيله أﻬج الطرق، الميسر ﻬا على خواص عبادة أنموذجاً من معرفة وجه إعجاز نظمه كافة الخلق".[4]

يحاول السجلماسي الحديث عن اللغة بوصفها أداة خاصة بالنشاط الإنساني ، ويختلف هذا النشاط من حيث الهدف ، فهو يقوم بتأدية عملية التواصل ،كما يتميز بخاصية التشكيل الجمالي والفني للغة، لذى ميز السجلماسي بين ملكة البيان وصنعة البلاغة ، فالبيان قوة نفسية فاعلة واستعداد فطري يقوم على التلقائية والعفوية أما البلاغة فهي صنعة يتعلمها الإنسان كأي حرفة من الحرف ، لكن السجلماسي لم يعرف مصطلح الملكة بالبيان سوى مرة واحدة في كتابه، في حين أقترن عنده مصطلح العلم بالبيان أكثر من عشرين مرة.

ويفرق السجلماسي بين مصطلحي العلم والصناعة ، فالعلم هو الوعي النظري بالصفات الراسخة للموضوع، أما الصناعة هي العلم بكيفية العلم ، ويرى الدكتور جابر عصفور أن مفهوم الصناعة قد ينصرف إلى الجوانب العلمية المتعلقة بكمية العمل، بينما ينصرف مفهوم العلم إلى الأصول النظرية المتعلقة بإدراك الكليات وبعبارة أخرى : يرتبط مصطلح العلم بالإدراك والمعرفة الكلية التي تتصف بالوحدة والتعميم ، أما مصطلح الصناعة فيرتبط بالقواعد العلمية التي تترتب عن الإدراك الكلي". [1]

وإذا تجاوزنا تحديد مصطلحي (العلم والصناعة) ، نجد أن السجلماسي يهدف إلى تحديد مجالات الموضوع من نقط الائتلاف ، ونقط الاختلاف بين الاختصاصات ، مركزاً على البلاغة ؛ لأن موضوعها هو الأدب ، وخاصة الشعر والخطابة، لهذا" وجب في علم البيان من قبل عموم نظره للخطابة والشعر؛ إذا كان نظره في العبارة البلاغية إعطاء القوانين العامة للخطابة والشعر من حيث العبارة البلاغية فقط، ألا يلتفت فيه إلى ما يخص صناعة منهما إلا بعد القول فيما يعم منهما أكثر من صنف واحد، إذا كان ذلك هو التعليم المنتظم". [2]

يحاول السجلماسي أن يضع تأسيساً لعلم صناعة الشعر في إطار دائرة أوسع هي صناعة البلاغة؛ فيفرق بين العلم النظري الذي سماه النقاد القدماء (الصنعة)،ولكن المصطلحين- رغم هذا التقابل - يتداخلان- "غير مرة في الاستخدام القديم، فيطلق العلم على الإدراك ،كما يوصف الاقتدار على استعمال الموضوعات بأنه علم وصناعة ، أو صنعة"[3] ، إلا أن السجلماسي زاوج بين المصطلحين، تقرر أن العملية الشعرية يجب أن تخضع لتلقائية المخيلة وعفويتها، فضلاً عن الدربة والمران، من هنا أخذ السجلماسي على الشاعر ابن خلاصة الأستاذ إكثاره من ألوان البديع ، يقول:" كان هذا الشاعر يكثر -كما قيل - من هذا الصنف من أصناف البديع حتى يجاوز فيه الحد ولا يكاد يخلى بيت منه جاءه عفواً سهلاً أو مستكرهاً متكلفاً ، وذلك بخلاف ما يشترط

فيه(...) وشرط هذا النوع وقسيمه معاً السهولة وقلة التكلف ، لان ما ظهرت فيه الكلفة فلا فائدة له ولذلك عيب نوع تجنيس التركيب لظهور الكلفة فيه وعد من أبواب الفراغ ، ولو اتفق أن يرد منه شيء خلٍ من التكلف لكان طرفة رائقة وتحفة أنيقة فائقة (...).[1]

فالشاعر كلما ابتعد عن طبعه في شعره ، جاء شعره بارداً ممجوجاً ، لانه يفتقد صدق التجربة الشعرية التي تعد المنحنى الرئيسي في الإبداع ؛ يضاف إلى ذلك الدور الذي تلعبه الدربة في عملية الإبداع والخلق؛ لأنه يجب على الشاعر الجيد أن يبتعد عن التكلف ، وأن يعتني بكل لفظة ينسبها إلى قصيدته ، وبكل جملة يركبها ، وبكل تعبير يستخدمه ، لذا وجب عليه العودة إلى قصيدته ، فيتعهدها بالتجويد والتنقيح.

وإذا قارنا بين حازم و السجلماسي، نجد حازماً رفض التكلف ، وشدد النكير على الشعراء المتكلفين، وزواج بين الطبع والصنعة في عملية الإبداع ، ثم يعود إلى مرجعيته، فينهل منها، فتكون قصيدته طافحة بفيض البيان، وسحر البلاغة ،وانسجام الإيقاع، أما السجلماسي ، فلم يتشدد في مسألة التكلف، وإنما مسها مساً خفيفا ، فلم يهاجم الشعراء، ولم يسفه رأيهم في القضية ، وإنما انتصر على الدعوة في إظهار عيوب الشعر الذي يتخذ التكلف مذهباً له.

وبذلك رأى السجلماسي ان الشاعر الحق لا يستطيع الاستغناء عنهما في عملية الإبداع ، لأنه يعتمد – أولاً– على طبعه وموهبته ، ثم ينتقل – بعد ذلك – الاعتماد على الجهد الواعي المبذول قصد اختيار الألفاظ

والمعاني والصور ، وهذه العملية تتأتى من القراءة والتثقيف والمراس ، ومن هنا يجب على الشاعر أن يبتعد عن التكلف المقيت ، لأنه لا ينتج سوى نظم مثقل بظلال كثيفة من الزينة والزخرفة.

في الآخر نعترف للنقاد المغاربة مشاركتهم العلمية والثقافية في القرنين الرابع والخامس الهجريين ، فكانت لهم إبداعات أدبية واسعة وثقافة علمية راسخة ، وفي عهدهم ازدهر الادب ازدهار محسوساً ، حيث تأنق الكتاب في إنشائهم شأن المشارقة ، ومالوا إلى السجع والتزيين والتنميق ، ولكن على غير إفساد في الذوق ومن دون أن تتغلب الصناعة على الفن ، وإزدهر النقاد وتوسعت مراميه وأهدافه وغاياته ، وأصبح للمغرب العربي نقاده الذين درسوا النص الأدبي وأبدعوا فيه أراء متميزة كما وقفوا عند اهم القضايا النقدية السائدة في عصرهم كقضية الطبع والصنعة ، والتي دار حولها نقاش كبير في المدونة التراثية النقدية.